بسم الله الرحمن الرحيم

٧١ - سورة نوح

عليه السلام

قال المهايميّ : سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته . وهى مكية . وآيها ثمان وعشرون .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢] (قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[٣] (أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)

[٤] (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » يعنى عذاب الطوفان « قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ » أى يعفو عنها . و (مِن) إما مزيدة ، أو تبعيضية . وهو ما وعدهم العقوبة عليها . وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها ، فقد تقدم عفوه لهم عنها . أو هو ما سبق ، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله « وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان . أى فلا يعاجلكم بعذاب غرق أو نحوه . « إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ » أى الذى كتبه على من كذب وتولى « إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم والنظر لأنبتُمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا)

[٦] (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا)

[٧] (وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا)

[٨] (ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا)

[٩] (ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)

[١٠] (فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا)

[١١] (يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا)

[١٢] (وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا)

[١٣] (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)

[١٤] (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

« قَالَ » أى نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضاقت عليه الحيل ، فى تلك المدد الطوال ، « رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى » أى إلى التوحيد والعمل الصالح « لَيْلًا وَنَهَارًا » أى دائماً بلا فتور ولا توان . « فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا » أى من الحق الذى أرسلتنى به « وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ » أى إلى الإيمان « لِتَغْفِرَ لَهُمْ » أى بسببه « جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ » أى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة « وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ » أى تغطوا بها من كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم فى الدين « وَأَصَرُّوا۟ » أى على الشر والكفر « وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا » أى تعاظموا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة « ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ

جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا » أى دعوتهم مرة بعد مرة، على وجوه متنوعة ، مابين مجاهرة وإظهار بلا خفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بينى وبينهم فى خفاء . وهـذه المراتب أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر . « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى سلوه العفو عما سلف بالتوبة النصوح « إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا » أى لذنوب من تاب وأناب . « يُرْسِلِ السَّمَآءَ » أى المطر « عَلَيْكُم مِّدْرَارًا » أى متتابعاً . « وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ » أى فيكثرها عندكم « وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا » أى لسقيا جناتكم ومزارعكم . « مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » أى لا ترون له عظمة ، إذ تشركون معه ما لا يسمع ولا يبصر . فنفى الرجاء مراد به نفى لازمه ، وهو الاعتقاد، مبالغةً . وجوّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تخافون عظمة الله. ومنه قوله[1] :

* إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا *

قال الشهاب : وهو أظهر .

---

(١) قائله أبو ذؤيب الهذلىّ ، من قصيدته التى مطلعها :

أساءلتَ رسمَ الدار أم لم تُسائلِ عن السِّكْن أم عن عهده بالأوائلِ ؟

السكن : جمع ساكن وهم أهل الدار وسكانها من يهوى ـ أى يرتفع إليهم ويريدهم ، ومنه قوله تعالى: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ـ والمسكن : المنزل نفسه .

ويروى بيت الشاهد هكذا :

إذا لسعته الدَّبْرُ لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نُوبٍ عَوَاسِلِ

قال : وربما أنشدت * وحالفها * وقوله : لم يرج لسعها أى لم يخش لسعها . والنوب : التى تنوب ، تجىء وتذهب .

انظر الصفحة رقم ١٤٣ ، من ديوان الهذليين ، القسم الأول .

« وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » أى تاراتٍ ، ترابًا ثم نطفًا ثم عَلَقًا ثم مضغًا ثم أجِنَّة ، وهكذا طوراً بعد طور . أى ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه ، لعظيم قدرته. هذا فى أنفسكم . وهكذا يستدل على باهر عظمته ، وقاهر قدرته من آياته الكونية . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا)

[١٦] (وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا)

[١٧] (وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا)

[١٨] (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

[١٩] (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا)

[٢٠] (لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

«أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا » أى يزيل ظلمة الليل، وينير وجه الأرض. « وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا » أى أنشأكم منها . « ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا » أى للحساب والجزاء. « وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا » أى تستقرون عليها وتمتهدونها. « لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » أى طرقاً مختلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا)

[٢٢] (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)

[٢٣] (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)

[٢٤] (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا)

[٢٥] (مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا)

« قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي » أى خالفوا أمرى وردّوا علىّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد، «وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا » أى رؤساءهم المتبوعين، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين .

«وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا» أى متناهياً كبره ، فإن (الكبّار) أكبر من (الكبير).

« وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » قال قتادة : كانت آلهة تعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك .

قال : فكان (ود) لكلب بدومة الجندل ، وكانت (سواع) لهذيل ، وكان (يغوث) لبنى غطيف من مراد بالجرف ، وكان (يعوق) لهمدان ، وكان (نسر) لذى الكلاع من حمير .

وقال (فى رواية) : والله ما عدا ـ أى كلٌّ منها ـ خشبة أو طينة أو حجراً .

وقال ابن جرير[1] : كان من خبرهم ـ فيما بلغنا ـ من محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصورهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وروى البخاريّ [١] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب ، بعدُ : أما (ود) ، فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما (سواع) فكانت لهذيل ، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبنى غُطَيف بالجرف عند سبا ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان ، وأما (نسر) فكانت لحمير لآل ذى الكَلَاع: أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ العلمُ ، عبدت.

تنبيهات :

الأول ـ قال الرازىّ : فى انتقالها عن قوم نوح إلى العرب . إشكال ، لأن الدنيا قد خربت فى زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب . ولا يمكن أن يقال إن نوحاً عليه السلام وضعها فى السفينة وأمسكها ، لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها ، فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها فى السفينة سعياً منه فى حفظها؟ انتهى كلامه .

ونحن نقول : إن جوابه بديهىّ ، وهو أن انتقالها إلى العرب بواسطة نقل أحوال قوم نوح وأبنائهم وعوائدهم ، على ألسنة الرحّل والسمّار ، لأن سيرة القرن المتقدم فى العصر المتأخر ، وسنة الخالف أن يؤرخ السالف . وجلىّ أن النفس أميل إلى الجهل منها إلى العلم، لاسيما إذا زين لها المنكر بصفة تميل إليها، فتكون ألصق به . وهكذا كان بعد انقراض العلم وحملته ، أن حدث ما حدث من عبادتها ، كما أشارت إليه رواية ابن عباس عند البخارىّ : حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخ العلم ، عبدت . وعجيب من الرازىّ أن لا يجد مخرجاً من سؤاله ، وهو على طرف الثُّمَام .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧١ ـ سورة نوح ، ١ ـ باب وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ، حديث رقم ٢٠٦٦ .

الثانى ـ قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : حكى الواقدىّ قال : كان (ود) على صورة رجل ، و (سواع) على صورة امرأة و (يغوث) على صورة أسد ، و (يعوق) على صورة فرس ، و (نسر) على صورة طائر . وهذا شاذ، والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر ، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار فى سبب عبادتها . انتهى .

الثالث ـ قال ابن القيّم فى (إغاثة اللهفان) أول ما كاد به الشيطان عبّاد الأصنام ، من جهة العكوف على القبور ، وتصاوير أهلها ، ليتذكروهم بها ، كما قص الله سبحانه قصصهم فى كتابه فقال: (وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ..) الآية .

ثم قال : وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن[1] النبىّ ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل[2] ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً، وقال[3]: اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وأمر بتسوية القبور ، وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلا خلافه فى ذلك كله ، إما جهلاً ، وإما عناداً لأهل التوحيد، ولم يضرهم ذلك شيئاً .... إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٦٢ ـ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، حديث رقم ٢٨٥ ، عن عائشة .

وإلى الحديث الذى أخرجه كذلك فى: ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧١ ـ باب بناء المسجد على القبر ، حديث رقم ٢٨١ ، عن عائشة أيضاً .

(٢) يشير إلى الحديثين اللذين رواهما مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز، حديث رقم ٩٢ عن فَضالة بن عُبَيْد ، و ٩٣ عن علىّ بن أبى طالب .

وقوله تعالى: «وَقَدْ أَضَلُّواْ» أى : الرؤساء «كَثِيرًا» ، أى خلقاً كثيراً ، أو الأصنام كقوله تعالى[1] : (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ) . «وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا» أى خذلانا واستدراجا . وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم .

قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به «مِّمَّا خَطِيـَٔـٰتِهِمْ» أى من أجلها «أُغْرِقُواْ» أى بالطوفان «فَأُدْخِلُواْ نَارًا» أى أذيقوا به عذاب النار «فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا» .

قال الزمخشرىّ : تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، كقوله تعالى[2] : (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا) .

وقال الرازىّ : لما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسائط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا)

[٢٧] (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)

[٢٨] (رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)

«وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا» أى أحداً .

قال ابن جرير[3] : يعنى بـ (الديّار) من يدور فى الأرض فيذهب ويجىء فيها ، وهو (فَيْعال) من الدوران ، ديوارا اجتمعت الياء والواو ، فسبقت الياء الواو وهى ساكنة ، وأدغمت الواو فيها ، وصيرتا ياء مشددة . والعرب تقول: مابها ديّار ولاعريب ولا دَوِىّ ولاصافر ولانافخ ضَرَمة

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ » عن طريق الحق . « وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » قال أبو السعود : أى إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال، مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ، منكر ، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم ، بعد ما جرّبهم ، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة .

وقال بعضهم : ملَّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر ، واستولى عليه الغضب ، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذى غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله ، فإن النطفة التى تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة ، وتتربى بهيآتها المظلمة ، لا تقبل إلا نفساً مثلها ، كالبذر الذى لا ينبت إلا من صنفه وسنخه . انتهى .

« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » قال ابن جرير[1] : أى رب اعف عنى، واستر علىّ ذنوبى وعلى والدىّ ، « وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا » قال ابن جرير[1] : أى ولمن دخل مسجدى ومصلاى، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه . وقيل: بيتى منزلى . « وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا » أى هلاكاً وخساراً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .